جريمة الجمال

رمضان مصطفى سليمان

ليلة الخميس على شاطئ المسيلة
وحكاية إبراهيم المصري

لم يكن صديقنا **إبراهيم المصري** ، ولا زوجته **ثراء**، أقلَّ شغفًا منَّا بسهرات مساء الخميس ؛ تلك السهرات التي اعتدنا أن نجعل منها موعدًا ثابتًا، نهرب فيه من صخب الأيام إلى هدوء البحر، فنترك همومنا عند أول موجة، ونستعير من النسيم بعض السكينة التي يضنُّ بها الواقع.

كان ذلك في مساء خريفي هادئ ، حين أرخى الغروب آخر خيوطه الذهبية على **شاطئ المسيلة**، واكتست صفحة البحر بلون بنفسجي شفيف، كأنها مرآة تعكس ما يختبئ في أعماق الأرواح أكثر مما تعكس السماء. كانت الرمال لا تزال تحتفظ بحرارة النهار، بينما أخذ النسيم البحري ينساب برفق، يلامس الوجوه المتعبة ويوقظ في القلوب حنينًا قديمًا إلى أيام أكثر صفاءً.

جلسنا في دائرتنا المعتادة ، نتبادل أطراف الحديث ، ونرتشف أكواب الشاي التي امتزج عبيرها برائحة الملح والرطوبة. غير أن تلك الليلة حملت شيئًا مختلفًا؛ فقد جاء إبراهيم بصحبة زوجته ثراء، وعلى وجهه سكينة غامضة تخفي وراءها ثقلًا من الذكريات.

كان إبراهيم رجلًا في منتصف الأربعينيات ، طويل القامة، عريض المنكبين ، أسمر البشرة، تتوزع على ملامحه آثار حياة لم تكن سهلة. عيناه الواسعتان تحملان بريقًا حزينًا ، وكأنهما اعتادتا النظر إلى ما وراء الأشياء. أما ثراء، فكانت امرأة رزينة ، بها مسحة من جمال و أنوثة ، يفيض وجهها هدوءًا ووقارًا، تكتفي بابتسامة خافتة، كأنها تحفظ في صدرها أسرارًا لا تبوح بها إلا للصمت.

تبادلنا النظرات ، ثم أفسح له الجميع مكانًا في الكرسي الذي اعتاد الراوي أن يجلس عليه. ابتسم إبراهيم ابتسامة قصيرة، ثم أطرق برأسه قليلًا، كأنه يبحث في أعماق ذاكرته عن باب قديم يخشى فتحه. ظل

صامتًا لحظات، ولم يكن يُسمع سوى ارتطام الأمواج بالشاطئ، حتى بدا البحر نفسه وكأنه ينتظر بداية الحكاية.

رفع رأسه أخيرًا، وقال بصوت هادئ امتزج فيه الحنين بالألم:

سأقص عليكم الليلة حكاية لم تغادرني منذ سنوات، حكاية بدأت في قريتي الصغيرة، حيث كانت البيوت الطينية تتعانق، والحقول تمتد حتى الأفق، وحيث كان الناس يعرف بعضهم بعضًا بالاسم والملامح وحتى بالأحلام.

ثم سكت قليلًا، وأخذ يحدق في ظلمة البحر.

كانت عيناه تسبحان بعيدًا، كأن الأمواج تحولت أمامه إلى طرقات قديمة تقوده نحو طفولته. وفي تلك اللحظة، بدا أن الزمن قد انكمش، وأن الشاطئ لم يعد سوى جسر يصل الحاضر بماضٍ لا يزال حيًّا في القلب.

قال بصوت خافت :

كم هو غريب أمر الذكريات، نظن أننا دفنَّاها مع السنين، لكنها تبقى كامنة في مكان ما داخلنا، تنتظر رائحة، أو صوتًا، أو مساءً يشبه مساءاتها القديمة، حتى تنهض فجأة بكل ما فيها من فرح ووجع.

ثم غرق في حديث داخلي ، كأنه لم يعد يخاطبنا ، بل يخاطب نفسه :

أيعقل أن يظل الإنسان أسير حادثة واحدة ؟ لماذا لا تموت بعض الأيام كما تموت بقية الأيام ؟ لماذا تبقى لحظة واحدة قادرة على أن تغيّر نظرتنا إلى الحياة كلها ؟ أهي الأقدار حين تعبر طريقنا، أم أننا نحن من نصنع قيودنا بأيدينا ثم نظل نحملها إلى آخر العمر ؟

ساد صمت عميق. حتى ثراء، التي كانت تجلس إلى جواره، لم تنطق بكلمة. كانت تنظر إليه بعينين تعرفان تفاصيل الحكاية قبل أن تُروى، وكأنها شاركته حملها عامًا بعد عام، حتى أصبحت جزءًا من حياتهما المشتركة.

نظر إلينا إبراهيم مرة أخرى، وقد بدت على وجهه ملامح رجل قرر أخيرًا أن يفتح صندوقًا ظل مغلقًا طويلًا.

قال : لم تكن قريتنا كبيرة ، لكنها كانت عالمنا كله. هناك تعلَّمنا معنى الجيرة، والوفاء، والخوف، والحب، كما تعلَّمنا أن الإنسان قد يخسر كل شيء في لحظة واحدة، دون أن يمنحه القدر فرصة للاستعداد.

ثم تنهد طويلًا، وأردف :

ما سأرويه لكم ليس مجرد قصة عن أشخاص رحلوا، بل قصة عن النفس البشرية حين تُختبر بين الرحمة والقسوة، وبين الحقيقة والوهم، وعن مجتمع قد يحكم على إنسان قبل أن يسمع صوته.

أخذ الليل يزداد عمقًا، واختلط سواد السماء بزرقة البحر، بينما راحت النجوم تتلألأ فوق رؤوسنا كأنها مصابيح صغيرة أُوقدت لتشهد تلك الليلة.

شعرنا جميعًا بأننا لم نعد جالسين على شاطئ المسيلة، بل أصبحنا على أعتاب قرية بعيدة، نستعد لعبور بوابة الذكريات، حيث تنتظرنا حكاية تحمل في طياتها ألمًا قديمًا، وعقدة لم تُحل إلا بعد سنوات، وحقيقة ستكشف كيف يستطيع الإنسان أن ينهض من بين أنقاض انكساره، حين يختار الصدق بدل الخوف، والمسامحة بدل الانتقام.

عندها أخذ إبراهيم نفسًا عميقًا، ثم قال بصوت ثابت :

كانت البداية في صباحٍ من صباحات الربيع، وهناك، تحديدًا، بدأت الحكاية التي غيَّرت حياتي إلى الأبد.

وسكت.

أما نحن، فقد بقينا نحدق في وجهه ، بينما كانت الأمواج تواصل عزفها الأبدي، وكأن البحر نفسه صار الراوي الثاني لتلك القصة التي لم تبدأ أحداثها الحقيقية إلا الآن.

ظلالٌ على ضفاف الترعة

كان ذلك في أواخر خريف عام 1958، حين كانت قرية **النجيلة**، إحدى القرى الصغيرة المترامية على ضفاف النيل في قلب الريف المصري ، تغفو كل مساء على وقع صرير السواقي، ورائحة الطين المبتل، وهمسات النخيل التي يبعثرها النسيم القادم من الحقول. كانت الحياة هناك بسيطة، تمضي بطيئة كجريان الماء في الترع، لا يعكر صفوها سوى خلافات عابرة بين الجيران، أو خصومة تنتهي عند مجلس العمدة قبل أن تبلغ أبواب المحاكم.

لكن ذلك الصباح لم يكن كسائر الصباحات.

استيقظت القرية على جريمة هزّت أرواح أهلها قبل بيوتهم، وألقت فوق الوجوه غلالة من الذهول والخوف. لم تكن جريمة قتل عادية، كتلك التي اعتاد الناس أن يسمعوا عنها في أطراف الريف، فتُقيَّد ضد مجهول أو يُلقى القبض على مرتكبها بعد أيام قليلة، ثم يطويها الزمن كما يطوي أوراق الخريف اليابسة.

بل كانت جريمة تنذر بشيء أكبر، وكأنها الشرارة الأولى لحريق لا يعلم أحد أين سينتهي، ولا كم روحًا سيلتهم قبل أن يخمد.

كانت القرية كلها تعيش في دائرة من الأسئلة. لم يعد حديث الرجال في المقاهي عن المحاصيل وأسعار القطن، ولا انشغلت النساء بأخبار الأعراس أو مواسم الحصاد. صار الجميع يتهامسون باسم القاتل المجهول، ويراقب بعضهم بعضًا بنظرات مرتابة، حتى بدا أن الثقة، التي كانت تجمع أبناء القرية منذ أجيال، قد تكسرت فجأة تحت وطأة الخوف.

كل شاب في القرية أصبح موضع شك. هذا لأنه تشاجر مع القتيل منذ أشهر، وذاك لأنه اختفى ليلة الحادث، وآخر لأن الصمت غلبه منذ وقوع الجريمة. كانت الظنون تتنقل بين الوجوه كما تتنقل الظلال فوق الحقول عند الغروب، لكنها لم تستقر يومًا على شخص بعينه.

أما أنا، فلم يُكلَّف إليَّ التحقيق رسميًا، ولم يصل إلى نقطة الشرطة التي أتولى مسؤوليتها أي أمر مباشر بتولي القضية. ومع ذلك، لم أستطع أن أقف موقف المتفرج.

كنت ضابط النقطة ، ومسؤولًا عن أمن تلك البقعة الصغيرة من الوطن. لم يكن الواجب بالنسبة إليَّ مجرد تعليمات تُنفذ ، بل كان عهدًا قطعته على نفسي يوم ارتديت الزي الرسمي. كنت أشعر أن أمن القرية جزء من كرامتي، وأن كل قطرة دم تُراق فيها تترك أثرًا خفيًا في ضميري.

وقفت مساء ذلك اليوم أمام نافذة مكتبي الخشبية، أحدق في الطريق الترابي الممتد بين الحقول. كانت الشمس تغوص ببطء خلف الأشجار، وتصبغ السماء بحمرة تشبه لون الدم الذي لم يجف بعد.

وسألت نفسي في صمت :

ترى، أي قلب استطاع أن يحمل كل هذا الظلام ؟ وأي يد امتدت لتنتزع حياة إنسان ثم عادت لتصافح الناس في الصباح وكأن شيئًا لم يكن ؟ هل يمكن أن يكون القاتل الآن يمر أمامي، يبادلني التحية، ويخفي خلف ابتسامته سرًا لا يحتمله جبل ؟

كانت تلك الأسئلة تثقل صدري أكثر مما يثقله السلاح المعلق على كتفي.

وفي الأيام التالية بدأت أراقب الناس ، لا بعيون الضابط وحدها، بل بعين الإنسان الذي يحاول أن يفهم النفس البشرية. كنت أرى الخوف يتسلل إلى البيوت، والريبة تزرع جدارًا صامتًا بين الأصدقاء، حتى الأطفال فقدوا ضحكاتهم المعتادة، وصاروا يعودون إلى منازلهم قبل أن تبتلع الشمس آخر خيوطها.

كلما اقتربت من الحقيقة ، بدت لي أكثر مراوغة.

كان كل خيط يقود إلى آخر ، وكل احتمال ينقضه احتمال جديد. وكأن الجريمة لم تُرتكب بسكين أو عصا، بل بخطة محكمة أرادت أن تجعل القرية كلها متهمة، فلا يبقى بريء إلا السماء.

كنت أردد بيني وبين نفسي : الشر لا يبدأ كبيرًا، بل يولد من كذبة صغيرة، أو حقد دفين، أو جرح أهمله صاحبه حتى تعفن في أعماقه. وربما كان القاتل ضحية قبل أن يكون مجرمًا، لكن ذلك لا يمنحه الحق في أن يحكم على إنسان بالموت.

كانت الليالي تمر ثقيلة ، والسكون الذي يلف القرية لم يعد باعثًا على الطمأنينة ، بل صار يخفي خلفه أصواتًا لا يسمعها إلا القلقون. كنت

أخرج أحيانًا إلى الطريق المؤدي إلى الترعة، فأقف طويلًا أحدق في المياه السوداء التي تعكس ضوء القمر، وأشعر أن الحقيقة تشبه تلك المياه؛ تبدو ساكنة من بعيد، لكنها تخفي في أعماقها تيارات لا تُرى.

وذات مساء، بينما كنت أتأمل البيوت الطينية المتراصة ، أدركت أن أخطر ما في الجريمة ليس الدم المسفوك ، بل ذلك الخوف الذي زرعته في النفوس. لقد سرقت من الناس قدرتهم على الاطمئنان ، وجعلت كل باب يُغلق قبل الغروب، وكل همسة تُفسَّر على أنها مؤامرة، وكل غريب يُستقبل بريبة.

حينها عقدت العزم على أن أواصل البحث ، مهما طال الطريق ، لا لأن القانون يفرض ذلك فحسب ، بل لأن الحقيقة وحدها قادرة على إعادة الحياة إلى تلك القرية التي كانت ، قبل أيام قليلة ، تنام على صوت السواقي وتستيقظ على زقزقة العصافير.

كنت مؤمنًا بأن العدالة ليست انتقامًا ، بل إعادة التوازن إلى عالم اختلّت موازينه. وأن القبض على الجاني لن يعيد الميت إلى الحياة، لكنه سيمنع أن تسيل دماء أخرى، وسيمنح الأحياء فرصة لأن يستعيدوا ثقتهم ببعضهم، ويؤمنوا من جديد بأن الخير، مهما طال ليل الشر، لا بد أن يجد طريقه إلى الفجر.

ومنذ تلك الليلة ، لم تعد القضية بالنسبة إليَّ مجرد ملف يُحفظ في درج، أو محضر يحمل رقمًا بين آلاف المحاضر، بل أصبحت رحلةً في أعماق النفس الإنسانية، أبحث فيها عن الحقيقة، وأقاوم بها الظلام الذي حاول أن يجعل من قرية وادعة ساحةً للخوف والشك.

وكان في يقيني أن لكل جريمة بداية ، ولكل خيط نهاية ، وأن الزمن، مهما طال ، لا يستطيع أن يخفي الحقيقة إلى الأبد.

حين خرج الليل من المصرف

كان ذلك في منتصف ليلةٍ ساكنة من ليالي الريف، حين كانت القرية تغفو على ضفاف المصرف الكبير، ولا يُسمع فيها إلا حفيف الأشجار، وأنين السواقي العتيقة، ونباح كلبٍ بعيد يتلاشى صداه في العتمة. كان المكان غارقًا في سكونٍ كثيف، حتى ليخيَّل إلى المرء أن الزمن نفسه قد توقف، وأن الليل قد فرد عباءته السوداء على البيوت الطينية والحقول الممتدة بلا نهاية.

في تلك الساعة، كنت أجلس في مسكني المتواضع القائم فوق مبنى النقطة، أتصفح مجموعةً من المجلات التي وصلتني حديثًا من المدينة. كنت أتنقل بين صفحاتها محاولًا أن أهرب من رتابة الليل، غير مدركٍ أن القرية كانت على موعدٍ مع مأساةٍ ستبدل ملامحها، وتترك في أرواح أهلها ندبةً لا يمحوها الزمن.

قطع سكون المكان طرقٌ خافت على الباب، ثم دخل نعيم عبد الباسط. كان رجلًا بسيطًا، نحيل القامة، غائر العينين، يحمل على وجهه سمرة الأرض وخشونتها. يعمل نهارًا خفيرًا بالنقطة، ويعينني ليلًا في شؤون المنزل. غير أن ملامحه تلك الليلة لم تكن تشبه عادتها؛ فقد كان الشحوب يكسو وجهه، والاضطراب يسبق كلماته.

تردد لحظة، ثم قال بصوتٍ متهدج :

سيدي، وقعت مصيبة في دار الشيخ علوان.

أغلقت المجلة ، وشعرت بأن شيئًا ثقيلًا هبط على صدري.

قال نعيم وهو يبتلع ريقه بصعوبة :

خرجت زينب، ابنة الشيخ علوان ، عصر اليوم إلى المصرف الكبير لتملأ جرتها كعادتها ، لكنها تأخرت عن العودة. ظن أهلها أنها أطالت الحديث مع نسوة القرية ، فلما اشتد القلق خرجوا يبحثون عنها. وبعد ساعات، وجدها أخوها عبد الواحد ملقاةً بجوار الساقية المهجورة على ضفة المصرف، كانت فاقدة الوعي، وقد سُلب شرفها.

ساد الصمت بيننا.

لم تكن الكلمات وحدها هي التي صدمتني ، بل الصورة التي رسمتها في خيالي. رأيت فتاةً في ربيع العمر، كانت قبل ساعات تمشي بخطى واثقة تحمل جرتها الفخارية، ثم انتهى بها المطاف جسدًا منكسرًا عند أطلال ساقيةٍ هجرتها الحياة.

لم تمضِ ساعات حتى غرقَت القرية في صمتٍ لم تعرف له مثيلًا. لم ترتفع الأصوات، ولم تُسمع صرخات؛ بل حلّ سكونٌ ثقيل، تتخلله همساتٌ خبيثة تتنقل بين الأزقة الضيقة والبيوت الطينية، تبحث عن قاتل المعنى قبل أن تبحث عن مرتكب الجريمة.

وكان كل همس يزيد الجراح اتساعًا.

χ

حين استعادت زينب وعيها، كانت شاحبة الوجه، زائغة النظرات، كأن روحها ما زالت عالقةً هناك، عند ضفة المصرف. جلست النسوة حولها، بينما وقف الرجال خارج الغرفة يترقبون كلمةً قد تزيح عنهم شيئًا من هذا الرعب.

سألها والدها الشيخ علوان بصوتٍ اختلط فيه الحنان بالألم:

يا ابنتي، من فعل بك هذا ؟

ارتجفت شفتاها ، وأخذت تحدق في الفراغ ، ثم همست بصوتٍ بالكاد يُسمع :

كان، جنيًّا، خرج من المصرف.

ساد صمتٌ أشد قسوةً من كل ما سبقه.

لم يكن أحد يصدق ما سمع، ولم يكن أحد يملك الجرأة على تكذيبه. كان الجميع يدرك أن الكلمات ليست إلا ستارًا واهيًا تخفي خلفه حقيقةً أكثر فظاعة؛ حقيقةً يعجز اللسان المكسور عن النطق بها، ويعجز القلب المفجوع عن احتمالها.

أما الشيخ علوان، فقد بدا في تلك اللحظة شيخًا آخر.

كان طويل القامة، مهيب الطلعة، كثَّ اللحية البيضاء، عُرف بين الناس بالوقار والعدل، وظلت داره عبر عقودٍ طويلة مقصدًا للصلح، وعنوانًا للطهر، ومأوى للمحتاجين. لم يعرف الناس عنه إلا حسن السيرة، ولا عن أسرته إلا العفة والكرامة.

لكن تلك الكلمة القصيرة كانت كافية لأن تهز الجبل.

اهتزت لحيته البيضاء، وانحنى رأسه فوق صدره، كأن حمل السنين كلها قد اجتمع عليه في لحظة واحدة. وخُيّل لمن ينظر إليه أن سحابةً سوداء مرت أمام عينيه، فحجبت عنه نور الدنيا، وألقت به في بحرٍ متلاطم من الأسئلة التي لا تجد جوابًا.

أيبتلع الأرض ما حدث ؟ أيمكن للعار أن يطرق بيتًا ظل الناس يضربون به المثل في الشرف ؟ وهل يُعاقَب الأب على ذنبٍ لم يقترفه، والابنة على جريمة كانت ضحيتها ؟

كانت تلك الأسئلة تثور في داخله كالعاصفة ، حتى شعر أن العالم الذي بناه عمرًا كاملًا ينهار حجرًا بعد حجر.

أما عبد الواحد، أخو زينب، فقد بدا كأنه خرج من شبابه في ليلةٍ واحدة.

كان فتىً قويَّ البنية، واسع الكتفين، تلمع ف ي عينيه حدة الرجال. غير أن تلك الحدة انطفأت، وحل مكانها انكسارٌ موجع. ظل يحدق في الأرض طويلًا، بينما كانت قبضتاه تنغلقان حتى ابيضت مفاصلهما.

كان يحدث نفسه في صمت :

كيف عجزت عن حمايتها ؟ لماذا تأخرت؟ ولو سبقت الريح إليها، أكان القدر سيتغير ؟ إنني أبحث عن وجه المجرم، لكنني لا أرى سوى وجهي، مثقلًا بالعجز.

كان يعلم أن الانتقام لن يعيد الزمن ، وأن الدم لا يمحو الألم ، لكن روحه كانت تصرخ مطالبةً بعدالةٍ تعيد للكون توازنه المفقود.

ولم يكن وحده. فقد تبددت فتوة إخوته جميعًا، وانطفأت ثقتهم بأنفسهم، وانحنت رؤوسهم تحت ثقل المصيبة. بدا البيت كله كشيخٍ هرم، نالت منه السنون فجأة، بعدما كان شامخًا كالنخلة في قلب القرية.

χ

في اليوم التالي ، خرج الناس إلى أعمالهم ، لكن القرية لم تكن هي القرية.

كان كل شيء على حاله، ومع ذلك تغيّر كل شيء.

الساقية ما زالت تدور ببطء، والمصرف ما زال يجري بصمته القديم، والحقول تواصل اخضرارها، لكن الأرواح أصبحت أقل صفاءً، والوجوه أكثر حذرًا.

وأدركت يومها أن الجرائم لا تصيب الأجساد وحدها ، بل تصيب الأمكنة أيضًا؛ فتترك في الطرقات خوفًا، وفي البيوت صمتًا، وفي القلوب شكًّا طويل العمر.

أما حديث الجني ، فلم يكن سوى صرخة إنسانٍ أعجزه الألم عن تسمية الوحش الحقيقي. فحين يعجز المجتمع عن مواجهة الجريمة، يختبئ خلف الأساطير، ويمنح الشر وجوهًا غيبية، هربًا من الاعتراف بأن أكثر الوحوش قسوةً قد يختبئ خلف وجه إنسان.

وهكذا بقيت تلك الليلة محفورةً في الذاكرة ، لا بوصفها ليلةً فقدت فيها فتاةٌ عفافها فحسب، بل ليلةً فقدت فيها قريةٌ بأكملها شيئًا من براءتها، واهتز فيها يقين الناس بأن الفضيلة وحدها تكفي لحماية أصحابها. ومنذ ذلك الحين، لم يعد المصرف الكبير مجرد مجرى للماء، بل صار شاهدًا صامتًا على مأساةٍ كشفت هشاشة الإنسان أمام الشر، وأكدت أن العدالة وحدها، لا الأوهام، هي القادرة على إعادة الطمأنينة إلى النفوس.

حين اقترب الإعصار

لم يكن مساء ذلك اليوم يشبه سواه من أمسيات القرية الهادئة. كان ذلك في أواخر الصيف، قبل أن تنضج ثمار النخيل بأيام، في قرية صغيرة تستريح على ضفاف النهر ، حيث يقضي الليل بطيئًا، وتتعانق أصوات الضفادع مع حفيف السعف ، وحيث اعتاد الناس أن يناموا على يقينٍ بأن الغد نسخة مطمئنة من الأمس.

كنت قد أمضيت عامين كاملين ضابطًا لنقطة الشرطة في تلك القرية. عامان لم أعرف فيهما سوى الخصومات الصغيرة، والنزاعات العابرة التي كانت تنتهي بكلمة طيبة أو مصافحة صادقة. لذلك، حين فرغ نعيم من رواية قصته، شعرت أن شيئًا غامضًا قد انكسر في أعماقي، وأن سحابة سوداء أخذت تتجمع فوق سماء القرية الوديعة.

ساد الصمت بيننا طويلًا ، حتى خُيّل إليّ أن الجدران نفسها تنصت إلى ما سمعته.

لقد تجلت الحقيقة أمام خاطري واضحةً لا لبس فيها ؛ فالإعصار يوشك أن يهب ، ولن يقتلع شجرة أو يهدم بيتًا، بل سيقتلع الأمن الذي غرقت فيه القرية طوال العامين الماضيين، ويبعثر الطمأنينة التي عاشها أهلها حتى ظنوا أنها قدر لا يزول.

نظرت إلى نعيم، وكان شابًا نحيلًا، تعلو وجهه سمرة الفلاحين، وفي عينيه قلقٌ يحاول أن يخفيه فلا يفلح. قلت له بهدوء يخالف اضطراب داخلي : راقب كل جديد، وأبلغني بأي خبر، مهما بدا صغيرًا.

أومأ برأسه وانصرف، بينما بقيت وحدي أواجه أسئلة لا تنتهي.

χ

في تلك الليلة، هجر النوم عيني.

جلست إلى مكتبي الصغير، والمصباح الزيتي يلقي ظلالًا مرتجفة على الجدران. كان الليل ساكنًا في الخارج، لكنه في داخلي كان صاخبًا كبحرٍ هائج.

من هو المجرم؟

أخذت أستعرض وجوه شباب القرية واحدًا تلو الآخر. كنت أعرفهم جميعًا ؛ أعرف ضحكاتهم في السوق ، وأصواتهم في الحقول ، وأحلامهم البسيطة التي لا تتجاوز بيتًا صغيرًا أو قطعة أرض أو نخلة مثمرة.

كنت أستحضر كل وجه، ثم أستبعده.

لا، ليس هذا. ولا ذاك.

وكلما انتهيت من اسم، بدأ اسم آخر يلح عليّ، حتى اختلطت الوجوه في ذهني، وضاعت الحقيقة بين الاحتمالات.

ثم باغتني سؤال أشد قسوة من سابقه :

ولو عرفت الفاعل، فهل أستطيع أن أنقذ الجميع ؟

هل يمكن أن أستر الفضيحة بتزويجه من كمها، فأحقن بذلك دمًا قد يهدر، وربما أنقذ دماءً أخرى؟ أم أن القانون لا يعرف مثل هذه الحلول التي تصنعها الرحمة، بينما تصنع العدالة أحكامها ببرودٍ لا يلتفت إلى القلوب؟

ظل السؤال يدور في أعماقي كرحى لا تهدأ.

كنت يومها ضابطًا ، لكنني كنت أيضًا إنسانًا. وكان الصراع بين الواجب والشفقة يمزقني في صمت.

χ

طلع الصباح بوجه شاحب ، كأنه هو الآخر لم ينم.

دخل نعيم مسرعًا ، وعلى ملامحه آثار خبر جديد.

قال بصوت خافت : أُعيد استجواب الفتاة.

رفعت بصري إليه في ترقب.

وأضاف : وأصرت على أن الذي فعل بها لم يكن إنسيًا، بل جني خرج إليها من جرّة الماء.

ظللت أحدق فيه لحظات، ثم أطرقت أفكر. أيكون هذا الخيال ستارًا تخفي خلفه الحقيقة ؟ أتكون الفتاة قد عقدت اتفاقًا صامتًا مع شريكها في الخطيئة ، فاختارت أن تنسب فعلته إلى عالم الجن ، حمايةً له من

انتقام البشر ؟ أم أنها، تحت وطأة الصدمة والخوف، صدقت الوهم حتى صار عندها حقيقة ؟

لم أجد جوابًا.

غير أنني كنت أعلم يقينًا أن إصرارها لن يطفئ النار، بل سيزيدها اشتعالًا.

ففي تلك القرية ، لم تكن مثل هذه الوقائع تنتهي عند حدود الكلام ، بل كانت كثيرًا ما تُكتب بالدم.

وأشفقت ، لأول مرة ، على ذلك الشاب المجهول. رأيته في خيالي فتى غض الإهاب، ربما أخطأ تحت سلطان نزوة عابرة، فإذا بخطئه يتحول إلى حكم بالموت.

وسألت نفسي بحرقة :

هل الإنسان هو مجموع خطاياه فقط ؟ أم أن في داخله دائمًا فرصة أخيرة للنجاة ؟

لكن صوت القانون كان يجيبني بصرامة، بينما كان صوت الرحمة يهمس في أعماقي بصوتٍ واهن.

حاولت أن أصل إلى خيط يقودني إلى الحقيقة. أردت لقاء إحدى شقيقات الفتاة، علّها تبوح بما عجزت الأخرى عن قوله. غير أن الأبواب أُغلقت في وجهي. كلما طرقت بابًا، وجدت من يتهرب من لقائي، أو يعتذر بكلمات مقتضبة، أو يشيح بوجهه بعيدًا.

كان الخوف قد بدأ ينتشر بين الناس انتشار الدخان قبل الحريق. الجميع يعرف أن شيئًا ما وقع. والجميع يخشى أن يكون الغد أثقل من أن يُحتمل.

وحين بلغني أن أهل الفتاة قد شرعوا بجدية في البحث عن الفاعل ، أدركت أن العاصفة لم تعد بعيدة.

لقد بدأت رياحها الأولى تهب.

χ

وفي ظهيرة يوم قائظ ، التقيت والد الفتاة مصادفة في الطريق. كان شيخًا أنهكه العمر ، وانحنى ظهره تحت أثقال الحياة قبل أن تنحني روحه تحت وطأة المصيبة.

حييته.

رفع رأسه ببطء ، كأن الحركة تكلفه جهدًا عظيمًا.

تلاقت أعيننا لحظة قصيرة. رأيت في وجهه من الانكسار ما لم أره في وجه إنسان من قبل. كان الحزن قد حفر أخاديده العميقة حول عينيه، وجفف ملامحه حتى بدا كغصن زيتون يابس قاوم الريح طويلًا.

همّ أن يرد التحية ، لكن رأسه ما لبث أن انخفض مرة أخرى ، كأن ثقل العالم كله قد استقر فوق عنقه.

ترددت في أن أفتح معه الحديث.

كيف أسأله عن جرحٍ لم يندمل بعد ؟ وكيف أطلب منه أن يعيد رواية مأساة لا تزال تنزف في قلبه ؟

آثرت الصمت.

تركته يمضي في طريقه ، يمشي ببطء ، كأن كل خطوة تنتزع جزءًا من روحه.

وبقيت أرقبه حتى غاب عن ناظري.

عندها فقط شعرت أن الإعصار الذي كنت أخشاه لم يعد يحوم فوق القرية فحسب، بل صار يعصف داخل صدور أهلها.

وأدركت أن أقسى العواصف ليست تلك التي تقتلع الأشجار ، بل تلك التي تعصف بالقلوب، فتتركها واقفة في مكانها، لكنها خاوية من الداخل، تعتصرها يدٌ خفية لا تُرى ، ولا تكف عن العصر حتى آخر نبضة.

وفي تلك اللحظة شعرت أن الإعصار الذي كنت أخشاه لم يعد احتمالًا بعيدًا.

لقد بدأ بالفعل.

لم يكن إعصارًا من ريح أو مطر، بل من خوفٍ وصمتٍ وشكوك، يقتلع الثقة من القلوب، ويبعثر السكينة التي عاشت عليها القرية أعوامًا طويلة.

وأدركت أن الحقيقة ، مهما طال اختباؤها، ستخرج يومًا إلى النور ، لكن الثمن الذي ستدفعه القرية لقاء ذلك سيكون أفدح مما يتخيله أحد.

أما أنا، فوجدت نفسي واقفًا بين واجبين لا يجتمعان: واجب القانون الذي يطالبني بكشف الحقيقة كاملة، وواجب الرحمة الذي كان يرجوني أن أجد مخرجًا ينقذ الأبرياء من دوامة الدم والثأر.

كانت تلك هي العقدة التي أحكمت قبضتها على قلبي ، ولم أكن أعلم يومها أن الأيام المقبلة ستكشف من الأسرار ما سيجعل تلك الليلة، بكل قلقها، تبدو أقل قسوة مما هو آتٍ.

الشيخة صباح، حين صار الوهم ملاذًا للقلوب

كان ذلك في مساءٍ من مساءات الخريف ، حين أخذت الشمس تجمع آخر خيوطها الذهبية خلف حقول القطن الممتدة على أطراف القرية، وتسللت نسائم رطبة تحمل رائحة الطين والماء من شاطئ الترعة القريب. كانت القرية تغرق في سكونها المعتاد، فلا يُسمع سوى نباح كلب بعيد ، وصوت السواقي وهي تدور ببطء كأنها تردد أنشودة قديمة لا تنتهي.

في تلك الساعة ، طرق نعيم باب داري على عجل. كان وجهه شاحبًا، وعيناه تخفيان قلقًا لم يستطع أن يواريه. جلس أمامي صامتًا لحظات، ثم قال بصوت خفيض :

لقد اجتمعت الأسرة، وقررت أن تستشير الشيخة صباح.

لم أفاجأ بالخبر، لكن شيئًا ثقيلًا هبط على صدري. شعرت وكأن ظلال المساء ازدادت كثافة ، وكأن القرية كلها تنزلق، خطوة بعد أخرى، نحو عالم لا سلطان للعقل فيه.

لقد جاءت الشيخة صباح إلى قريتنا قبل أشهر قليلة ، ولم تدخلها امرأة مجهولة ، بل سبقتها شهرة واسعة نسجتها الألسنة قبل أن تطأ قدماها الأرض. قيل إنها تعرف خفايا الغيب، وتقرأ المصائر كما تُقرأ الكتب المفتوحة، وتبرئ الأمراض التي عجز عنها الأطباء، وتكشف السحر والحسد والعين، وترد الغائب، وتفتح أبواب الرزق، وتداوي النفوس الحائرة.

وكان الناس يروون عنها الحكايات في الليالي الطويلة ، حتى اختلط الصدق بالخيال، وصارت الأسطورة حقيقة لا يناقشها أحد.

وجدت تلك المرأة قلوب الفلاحين مهيأة لتصديق كل معجزة. كانوا بسطاء، أنهكتهم الحياة ، وأرهقتهم المواسم القاسية ، فلم يجدوا في الواقع ما يخفف آلامهم ، فراحوا يفتشون عن بصيص أمل في الغيب. استقبلوها بترحاب بالغ ، وفتحوا لها بيوتهم وقلوبهم ، حتى غدت جزءًا من حياتهم اليومية.

اختارت لنفسها حجرة صغيرة مبنية من اللبن ، قائمة على أطراف القرية ، بعيدًا عن الضجيج. كانت الحجرة تبدو متواضعة من الخارج ، لكنها في أعين الناس كانت عالمًا آخر؛ بيتًا للأسرار ، وعيادة للنفوس المكسورة ، ومعبدًا للأمنيات المؤجلة، ومعهدًا غامضًا لأبحاثها في المجهول. هناك كانت تستقبل الوافدين ، يستمعون إلى كلماتها كما يستمع المؤمن إلى نبوءة مقدسة ، ويخرجون منها وقد حمل كل واحد منهم تفسيرًا جديدًا لمصيبته، أو وعدًا غامضًا بالخلاص.

أما أنا، فمنذ اللحظة الأولى التي حلت فيها بيننا ، راودتني رغبة صادقة في منعها من البقاء.

لم يكن خوفي منها كامرأة ، بل مما تمثله من سلطة خفية على العقول. كنت أرى كيف يتحول الإيمان البسيط إلى استسلام ، وكيف يُستبدل التفكير بالتصديق ، والعمل بالانتظار ، والبحث عن الأسباب بالتعلق بالأوهام.

قلت في نفسي يومها :

هل أترك قريتي تسير خلف السراب ؟ أم أواجه هذا المد قبل أن يستفحل ؟ ولكن، هل يكفي العقل وحده حين يجوع القلب إلى الأمل ؟

ظل هذا السؤال يطاردني ليالي طويلة.

كنت أعلم أن أي محاولة لطردها ستشعل غضب الناس. فالفلاح الذي وجد عندها عزاءً لفقد ابنه ، أو المرأة التي صدقت أنها أنقذت طفلها من الموت ، أو الشيخ الذي أقنع نفسه بأنها كشفت له سبب تعاسته ، لن يقبلوا أن تمسها يد بسوء.

وكانت علاقتي بأهل القرية ثمينة عندي. سعيت طويلًا إلى كسب ثقتهم، وإلى أن أظل قريبًا منهم، أشاركهم همومهم وأحلامهم، وأقودهم بالحكمة لا بالقهر. لذلك ابتلعت اعتراضي، وتركتها تبقى، على مضض، وأنا أرقب الأيام بقلق صامت.

لكن الأيام لم تمضِ كما تمنيت.

بل أخذت شهرتها تتسع كدوائر الماء إذا ألقي فيها حجر. فما عاد يقصدها أهل قريتنا وحدهم ، بل صار الناس يفدون إليها من القرى المجاورة ، بل ومن أماكن أبعد. كانت الدواب تقف أمام حجرتها منذ الفجر، ويجلس الرجال والنساء في طوابير طويلة، يحمل كل منهم وجعًا

مختلفًا ، لكنهم يشتركون جميعًا في رجاء واحد: أن تجد الشيخة صباح للمستحيل بابًا.

وكانت الحكايات تتكاثر كل يوم.

هذا يقول إنها أعادت إليه ماله الضائع. وتلك تقسم أنها بشرتها بحملٍ بعد سنوات من الحرمان. وثالث يروي أنها شفت ابنه بكلمات همست بها في أذنه.

ولم يعد أحد يسأل عن الدليل ؛ فالناس إذا أحبوا معجزةً، صنعوا لها ألف شاهد.

كنت أراقب ذلك كله بصمت ، غير أن داخلي كان يموج بأسئلة موجعة.

أحقًا يحتاج الإنسان إلى الوهم كي يستطيع مواصلة الحياة؟ وهل الحقيقة وحدها قادرة على مواساة القلوب؟ أم أن البشر، حين تضيق بهم الدنيا، يخلقون لأنفسهم أبوابًا سرية يهربون عبرها من قسوة الواقع ؟

كلما رأيت وجوه الخارجين من عندها ، لمحت فيها شيئًا يشبه الطمأنينة ، لكنه كان ، في نظري، طمأنينة هشة، تقوم على أرض رخوة، لا تلبث أن تنهار أمام أول امتحان.

ورغم ذلك، كنت أعجز عن إصدار حكم قاطع.

فالمرأة التي أراها صانعة أوهام ، كان آخرون يرون فيها طوق النجاة. والأكاذيب التي كنت أخشاها ، كانت تمنح قلوبًا كثيرة القدرة على احتمال الحياة.

وهكذا بقيت الشيخة صباح في حجرتها الطينية ، بين حدود الواقع والخيال ، تحكم مملكة لا تُرى ، وتزداد سلطانًا كلما ازداد الناس خوفًا من المجهول، بينما كنت أقف بعيدًا، ممزقًا بين واجبي في حماية العقول، ورغبتي في ألا أكسر قلوبًا لم تجد في الحياة سوى الأمل الأخير.

إذن فقد قرر الشيخ أن يلجأ لعالمة الغيب ، ترى ماذا ستقول له ؟ و هل في استطاعتها مثلا أن تدله على المجرم الحقيقي أم سوف تتهم بريئا فتكون الطامة الكبرى ؟و امرت نعيم على أن يقف على ما ستتمخض عنه هذه الزيارة ، وبقيت مع أفكاري و هواجسي .

قبل أن تنطلق الرصاصة

كان ذلك في مساء يوم ثقيل من أمسيات الخريف ، حين بدأت الظلال تتمدد فوق حقول القرية ، وتبتلع آخر خيوط الشمس الهاربة خلف أشجار الجميز العتيقة. كانت القرية تغرق في سكون خادع، لا يقطعه إلا نباح كلب بعيد، أو صياح طائر عاد متأخرًا إلى عشه. غير أن ذلك السكون لم يكن سوى ستار رقيق يخفي تحته عاصفة توشك أن تقتلع الأرواح.

دخل نعيم مسرعًا، وقد بدا على وجهه أثر خبر أثقل قلبه قبل أن ينطق به. وقف لحظة يلتقط أنفاسه، ثم قال بصوت خافت :

الشيخ علوان، وأبناؤه الثلاثة، ذهبوا صباح اليوم إلى الشيخة صباح، ومكثوا عندها ثلاث ساعات كاملة. فتحت لهم المندل ، وأخبرتهم باسم الفاعل.

ساد صمت طويل ، كأن الكلمات لم تغادر فمه ، بل استقرت في صدري حجارة ثقيلة. ثم تابع :

خرجوا من عندها وقد خفّ شيء من عبوسهم، كأنهم وجدوا ما كانوا يبحثون عنه.

ما إن غادر نعيم حتى شعرت بأن الأرض تميد تحت قدمي. لم يعد الأمر مجرد ظنون أو مخاوف عابرة؛ لقد اقتربت ساعة الدم. كانت جريمة قتل تتهيأ في الظلام، تمشي بخطوات ثابتة نحو قدرها، وأنا أقف أمامها عاجزًا، لا أملك إلا القلق.

كنت أعرف القتلة، لكنني لم أكن أعرف الضحية.

يا لقسوة هذا العجز! أي عدالة هذه التي ترى السكين ولا ترى العنق التي ستذبح ؟

ضاقت الدنيا في وجهي حتى خلت أن الجدران نفسها تقترب مني. سدت الطرق جميعها، وغدوت كمن يقف في مفترق لا يؤدي إلى نجاة.

تساءلت في نفسي :

أأذهب إلى الشيخ علوان ؟ أرجوه أن يترك أمره للقضاء ؟ أن يكبح نار الثأر، ويؤمن بأن العدالة لا تُقام بالرصاص ؟

لكنني كنت أعرف الرجل جيدًا. أعرف صلابة الريف حين يتعلق الأمر بالشرف، وأعرف أن القانون في تلك القرى كثيرًا ما يقف بعيدًا ، بينما يتقدم الثأر بخطوات واثقة. فهل يتخلى عن إرث الآباء والأجداد ليسلم حقه إلى محكمة قد تطول إجراءاتها، أو تعجز عن بلوغ الحقيقة ؟

كنت أعرف الجواب قبل أن أطرح السؤال.

إذن، ماذا أفعل ؟ هل أجلس مكتوف اليدين، أنتظر الرصاصة الأولى ؟

أتخيل نفسي أهرع نحو مصدر الصوت ، فأجد جسدًا ممددًا على التراب، ودمًا ساخنًا يختلط بغبار الطريق ، ونساء يلطمن الوجوه، وأطفالًا يحدقون في الموت لأول مرة.

ثم تبدأ الإجراءات المعتادة، إبلاغ النيابة. انتقال رجال التحقيق. استجواب الشهود. تحرير المحاضر.

تتراكم الأوراق فوق المكاتب ، وتدور الأسئلة في حلقة مفرغة، ثم يأتي القرار البارد الذي حفظته عن ظهر قلب:

تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل.

كم مرة رأيت هذه العبارة تدفن الحقيقة قبل أن تدفن الضحية ؟

وخطرت لي فكرة أخرى أكثر جرأة.

لماذا لا أقبض على الشيخ علوان وأبنائه قبل وقوع الجريمة ؟ لكن ما الدليل ؟ أي قانون يسمح باعتقال رجال لمجرد أنني أخشى ما قد يفعلونه ؟

كنت أوقن أنني لن أستطيع الحصول على قرينة واحدة، فضلًا عن دليل ينهض سندًا لاتهامهم. كانت قناعتي الشخصية لا تساوي شيئًا أمام نصوص القانون، وكان حدسي، مهما بلغ صدقه، لا يصلح ورقة في ملف تحقيق.

وهكذا وجدت نفسي سجين معادلة قاسية :

أعرف أن الدم قادم، ولا أستطيع منعه.

كانت تلك أطول ليلة مرت عليّ منذ التحقت بالخدمة.

لم أذق فيها طعم النوم.

جلست وحدي في غرفتي ، أراقب الظلام وهو يزحف على نوافذ المنزل، وأرهفت السمع حتى أوشكت أن أسمع نبض قلبي.

كان نقيق الضفادع في الترعة يبدو لي كأنه وابل من الطلقات. وكان حفيف الأشجار ، حين تعبث به الريح، أشبه بأصوات استغاثة مكتومة ، تصدر عن إنسان يحتضر ولا يجد من ينقذه. أما نباح الكلاب المتقطع ، فقد تحول في مخيلتي إلى نذير موت يجوب طرقات القرية ، يبحث عن ضحيته القادمة.

ولم يكن الليل يخيفني بظلامه، بل بما يخفيه. يا للمفارقة المؤلمة !

أنا المقيم على تنفيذ العدالة، وحافظ الأمن في هذه القرية، أجلس في بيتي عاجزًا، لا أقوى على حماية روح واحدة، ولا أملك إلا انتظار الخبر الذي أخشاه.

تساءلت في أعماقي : أهذه هي العدالة حقًا ؟ أن ننتظر وقوع الجريمة حتى نبدأ البحث عن مرتكبها ؟ أم أن العدالة الحقيقية هي أن نمنع الدم قبل أن يسيل ؟ لكن كيف أمنع ما لا أملك دليلاً عليه ؟

كان الصراع يمزقني بين رجل القانون الذي يسكن عقلي، والإنسان الذي يسكن قلبي. الأول يطالبني بألا أتجاوز حدود سلطتي، والثاني يصرخ في وجهي: إذا سقط قتيل الليلة، فستكون شريكًا في موته بصمتك.

ولم أجد جوابًا يهدئ تلك الحرب الداخلية.

وحين أشرقت خيوط الفجر الأولى ، وانسحب الليل ببطء عن الحقول والبيوت، شعرت بشيء من الارتياح. تنفست الصعداء، لا لأن الخطر قد زال، بل لأن ليلة أخرى مرت دون أن تسقط فيها رصاصة.

غير أنني كنت أعلم أن الموت لم يتراجع، لقد أرجأ موعده فقط.

وبينما كنت غارقًا في تلك الأفكار ، ومثقلًا بإحساسي بالعجز، لمع في ذهني خاطر مباغت ، كأنه ومضة برق شقت سماء قاتمة.

لماذا لم أذهب إلى الشيخة صباح ؟ هي وحدها تعرف الاسم الذي أخبرت به الشيخ علوان. إذا استطعت أن أجعلها تفصح عما قالته، فقد أصل إلى الخيط الذي يمنع الكارثة قبل وقوعها.

نهضت من مكاني فجأة، وشعرت بشيء من الأمل يعود إلى صدري بعد ليلة كاملة من الاختناق.

ولمت نفسي بشدة. كيف غاب عني هذا الطريق ؟

كيف ظللت أدور في دائرة اليأس ، بينما كان باب آخر يقف أمامي منذ البداية ؟

لقد قصّرت في التفكير، وأهدرت وقتًا ثمينًا كان يمكن أن ينقذ حياة إنسان.

حسمت أمري دون تردد. سأذهب إليها اليوم. سأواجهها بالحقيقة. وسأجبرها، بكل ما يمنحه لي القانون من سلطة، أن تروي لي ما أخفته عن الجميع.

فلعل كلمة واحدة ، أو اسمًا واحدًا، يكون كافيًا ليوقف الرصاصة قبل أن تغادر فوهة البندقية، وينتصر القانون هذه المرة على الثأر، وتنجو القرية من صباح جديد تكتبه الدماء.

حين اختنق البخور بالحقيقة

كان ذلك في مساء شتوي ثقيل ، حين أخذت الشمس تنسحب ببطء خلف البيوت الطينية ، تاركة السماء معلقة بين زرقة باهتة وحمرة خجولة. كان الهواء ساكنًا، كأنه يحبس أنفاسه انتظارًا لشيء غامض على وشك أن يقع. في تلك اللحظة شعرت أن العودة لم تعد ممكنة، وأن الطريق الذي اخترته، مهما كان وعِرًا، صار قدري الذي ينبغي أن أمضي إليه حتى نهايته.

ناديت نعيم، وكان يقف عند عتبة الدار ، يرقبني في صمت يشبه صمت الأشجار العتيقة. أخبرته بما عزمت عليه، فلم يقاطعني بكلمة، غير أن عينيه كانتا تقولان ما عجز عنه لسانه. رأيت فيهما قلقًا عميقًا، وخوفًا مكتومًا من رحلة لا يعرف نهايتها. كانت نظرته تستوقفني لحظة، وكأنها ترجوني أن أعدل عن قراري، لكن شيئًا في داخلي كان قد تجاوز مرحلة التردد. كنت أشعر أن الحقيقة، مهما كانت موجعة، أهون من حياة ينهشها الشك كل يوم.

خرجت من البيت ، وسلكت الطريق الترابي المؤدي إلى منزل الشيخة صباح. كانت الأزقة تضيق كلما اقتربت، والظلال تتمدد فوق الجدران القديمة ، حتى بدا المكان وكأنه منفصل عن العالم ، يعيش زمنًا آخر لا تقيسه الساعات ولا تعرفه المدن.

كان منزلها متواضعًا ، يلفه صمت ثقيل ، لا يقطعه إلا حفيف الأشجار وصوت نار تتقد في الداخل. دفعت الباب الخشبي برفق، فأذنت لي بالدخول.

جلست قبالتها على مقعد خشبي عتيق ، يفصل بيننا موقد صغير تتراقص فوقه ألسنة اللهب. كانت النار تتلوى في هدوء، بينما راحت سحب البخور تتصاعد منها ببطء، فتملأ الغرفة بدخان كثيف يلتف في الهواء كستائر رمادية ، يحجب الأشياء ويمنحها هيئة ضبابية موحية.

كانت الشيخة صباح امرأة تجاوزت الخمسين ، يغطي رأسها وشاح أسود ، وتجاعيد وجهها تحكي حكايات طويلة من الزمن والوحدة.

أما عيناها، فكانتا غائرتين، تلمعان بذكاء يصعب الاطمئنان إليه، كأنهما تخبئان أسرارًا لا ترغب في البوح بها. كانت تتحرك بهدوء شديد، تمد يدها بين حين وآخر إلى علبة البخور، فتأخذ قبضة صغيرة منه، وتنثرها فوق الجمر، فيتصاعد دخان جديد أكثر كثافة، ثم تعود إلى صمتها، وكأنها تستمتع بأن تجعل الكلمات تضيع وسط الضباب.

بدأت أحدثها عن سبب مجيئي ، واختَرت كلماتي بعناية ، أراقب ملامحها مع كل جملة. غير أن وجهها بقي ساكنًا، لا يكشف دهشة ولا إنكارًا، حتى خُيّل إليّ أن حديثي يسقط في بئر بلا قرار.

قالت بهدوء مصطنع : يا بني، لا أعلم شيئًا مما تقول.

تسللت كلماتها إلى أذني باردة ، لكنها لم تبلغ قلبي. شعرت أنها لم تكن تنفي الحقيقة بقدر ما كانت تدفنها تحت ركام من الصمت.

قلت وأنا أحاول أن أتماسك : أرجوك ، لا أريد إلا الحقيقة. لقد قطعت كل هذه المسافة لأنني أؤمن أنك تعرفين ما أجهله.

ابتسمت ابتسامة باهتة ، ثم مدت يدها مرة أخرى نحو علبة البخور ، وألقت حفنة جديدة فوق النار. ارتفعت الأدخنة سريعًا ، حتى صار التنفس أكثر صعوبة ، واختلطت رائحة العود المحترق بحرارة المكان ، فكأن الغرفة تضيق شيئًا فشيئًا.

في داخلي، كان صراع مرير يدور.

لماذا تهرب ؟ أتخشى الحقيقة إلى هذا الحد ؟ أم أنها ترى في جهلي نجاة لي ؟

كانت الأسئلة تتكاثر في رأسي كأسراب الغربان، ولا أجد لها جوابًا. شعرت أن الدخان لم يعد يملأ الغرفة وحدها ، بل أخذ يتسلل إلى صدري، يخنق أنفاسي، ويغلف أفكاري بضباب كثيف.

حاولت للمرة الأخيرة.

قلت بصوت أكثر حدة : إن الصمت لا يمحو الحقيقة ، بل يجعلها أكثر قسوة.

رفعت رأسها ، ونظرت إليّ طويلًا ، ثم عادت إلى النار ، كأنها لم تسمع شيئًا. امتدت يدها مجددًا نحو علبة البخور.

في تلك اللحظة انفلت شيء في داخلي.

لم يعد الغضب مجرد شعور ، بل صار قوة تدفعني إلى الحركة. مددت يدي بسرعة ، وأمسكت بالعلبة قبل أن تصل إليها.

قلت ، وقد اختلط اختناقي بالغضب : كفى، لقد امتلأت الغرفة بالدخان، ولم يبق فيها متسع للحقيقة.

ساد الصمت.

حتى النار بدت وكأنها هدأت فجأة ، وأخذ صوت احتراق الجمر يتردد خافتًا في المكان. نظرت الشيخة صباح إلى يدي الممسكة بالعلبة ، ثم رفعت بصرها نحوي. لأول مرة رأيت شيئًا يتغير في عينيها ؛ لم يكن خوفًا ، ولا غضبًا ، بل كان تعبًا عميقًا يشبه تعب من حمل سرًا أثقل من عمره.

تنهدت طويلًا، وأسندت ظهرها إلى الجدار.

قالت بصوت خافت : بعض الحقائق يا ولدي ، لا يحجبها البخور، لكنها تحرق من يعرفها.

أحسست أن الجملة سقطت في أعماقي كحجر في ماء ساكن. أدركت أن رحلتي لم تكن إلى هذا المنزل وحده، بل كانت رحلة إلى نفسي، إلى قدرتي على احتمال ما سأسمعه بعد قليل.

في تلك اللحظة ، تبدل معنى الخوف داخلي. لم أعد أخشى الحقيقة، بل أصبحت أخشى الثمن الذي قد أدفَعه إذا عرفتها.

أما الغرفة ، فقد بقيت غارقة في بقايا الدخان ، غير أنني شعرت لأول مرة أن الضباب الذي كان يلف روحي بدأ ينقشع ، وأن الحقيقة ، مهما طال اختباؤها ، لا بد أن تجد طريقها إلى النور، تمامًا كما تجد النار طريقها دائمًا إلى الرماد.

ورقة في العلبة، والليل الذي غيّر كل شيء

كان ذلك في مساء يوم قائظ من أيام الصيف ، في أحد البيوت الطينية المتواضعة بمدينة **نفطة**، حيث كانت الأزقة الضيقة تغرق في صمت ثقيل، لا يقطعه سوى همس الريح وهي تعبث بأغصان النخيل. دخلت المنزل وأنا أحمل في صدري أسئلة كثيرة، ولم يخطر ببالي أن لحظة عابرة ستقودني إلى باب حقيقة طال اختباؤها خلف الخوف.

كانت **الشيخة صباح** امرأة تجاوزت الخمسين بقليل ، نحيلة الجسد ، يعلو وجهها الشاحب أثر السنين، وتغشاه مسحة من الحزن الدائم. كانت عيناها غائرتين، لكنهما تخفيان قلقًا لا يخطئه الناظر، وكأنهما تحملان سرًا أثقل من قدرتها على الاحتمال.

وبينما كنت أهمّ بالحركة داخل الغرفة الضيقة ، اصطدمت يدي بيدها التي كانت تمسك علبة صغيرة. لم يكن الاصطدام عنيفًا، لكنه كان كافيًا لأن تنقلب العلبة من بين أصابعها، فتتناثر محتوياتها على الأرض في مشهد أربك المكان كله.

تمتمت معتذرًا في هدوء : عذرًا، لم أقصد.

لكنها لم تلتفت إلى اعتذاري. ارتمت على ركبتيها في لهفة ظاهرة، تجمع ما تناثر بسرعة مضطربة ، وكأن كل ثانية تمر قد تكشف كارثة تنتظرها. أثار ذلك اضطرابي، فانحنيت أساعدها في جمع الأشياء المتفرقة.

كانت أصابعي تتحرك بين الأوراق الصغيرة واللفائف المتناثرة، حتى استقرت على وريقة مطوية سقطت بعيدًا عن العلبة. وما إن مددت يدي إليها، حتى رأيت الشيخة صباح تهوي بجسدها محاولة أن تسبقني إليها، غير أن يدي كانت أسرع.

التقطت الورقة.

تغير لون وجهها في لحظة ، وتجمدت ملامحها، وكأن الزمن توقف عند تلك الحركة الصغيرة.

فتحت الورقة بهدوء ، وما إن وقع بصري على ما بداخلها ، حتى انطلقت الكلمات من فمي دون إرادة :

ما هذا ؟ !

رفعت رأسي إليها، وقد امتزج الذهول بالغضب.

بخور؟، أهذا بخور ؟

تأملت القطعة الداكنة جيدًا، ثم هززت رأسي ساخرًا بمرارة.

لم أكن أعلم أن الحشيش يُستعمل بخورًا، إلا اليوم.

ساد الصمت. صمت ثقيل كأن الهواء نفسه امتنع عن الحركة.

اجتاح وجه المرأة إعصار من الخوف. ارتجفت شفتاها ، واتسعت عيناها حتى بدتا كأنهما تستغيثان. كان الهلع يكسو ملامحها، ولم تعد قادرة على إخفاء ارتباكها.

في تلك اللحظة، ومض في ذهني خاطر جريء.

قلت بنبرة صارمة : والآن، ستتكلمين، أليس كذلك ؟

لم تجب.

فأضفت ، وأنا أثبت نظري في عينيها : وإلا،

تركت الكلمة معلقة عمدًا، ثم أكملت ببطء :

بضع سنوات في السجن، بتهمة إحراز المخدرات.

اهتز جسدها كله ، وغامت ملامحها كأن الحياة انسحبت منها دفعة واحدة. خفضت رأسها، وأخذت أنفاسها تتسارع ، ثم رفعت إليّ عينيها المبللتين وقالت بصوت متهدج : لا أستطيع،

ساد صمت قصير.

ثم همست : إنهم سيقتلونني.

تسللت كلماتها إلى أعماقي، لكنها لم تُبدد شكي. كنت أعلم أن وراء خوفها قصة أكبر من قطعة حشيش، وأن امرأة بلغت هذا القدر من الرعب ليست إلا حلقة ضعيفة في سلسلة طويلة من الجريمة.

قلت بحزم : إذن، هيا بنا إلى مركز الشرطة في نفطة.

وفي اللحظة نفسها وضعت يدي على مقبض مسدسي.

لم يكن الهدف تهديدها بقدر ما كان اختبارًا أخيرًا لصدقها.

فارتدت إلى الخلف مذعورة، وصرخت :

لا، سأقول لك، سأقول كل شيء !

قلت بلهجة لا تعرف التردد : إذن انطقي.

هزت رأسها بعنف.

ليس الآن،

قطبت حاجبي.

ولماذا ؟

قالت وهي تنظر نحو النافذة كأنها تخشى أن يكون أحد يراقبنا :

الليلة، بعد العشاء.

قلت بصرامة : بل الآن.

أغمضت عينيها لحظة، ثم قالت بصوت خافت اختلط فيه اليأس بالرجاء :

لا أستطيع، لقد هددني بالقتل إن فتحت فمي. إنه لا يرحم ، ويعرف كل من يدخل هذا البيت ويخرج منه. إذا رآك تغادر وأنت راضٍ ، سيظن أنني لم أقل شيئًا ، أما إذا أطلت البقاء أو خرجت غاضبًا ، فسيفهم أنني خنته، وعندها لن يراني أحد على قيد الحياة.

ساد الصمت بيننا.

كنت أحدق في وجهها محاولًا أن أقرأ ما وراء الكلمات.

هل كانت تخدعني ؟

أم أن الخوف قد جعلها سجينة رجل لا تعرف منه سوى القسوة ؟

دار في داخلي صراع مرير. كنت بين واجب القانون، الذي يقتضي القبض عليها فورًا، وبين حدس المحقق الذي يخبرني أن هذه المرأة ليست سوى ضحية، وأن الحقيقة الكبرى لا تزال مختبئة في مكان آخر.

قالت بصوت يكاد يختنق :

اخرج الآن، وأعلن أمام الناس أنك لم تعرف مني شيئًا. ثم عد إليّ خفية بعد العشاء، وسأكشف لك كل ما أخفيه، أقسم لك أنني لن أكذب.

كانت نبرة الصدق في صوتها واضحة ، لا تشبه أصوات المجرمين الذين اعتدت استجوابهم. كانت أقرب إلى استغاثة إنسان يوشك أن يغرق، يبحث عن يد تمتد إليه قبل أن يبتلعه الظلام.

ظللت أنظر إليها طويلًا.

وفي أعماقي كان سؤال واحد يتردد بإلحاح :

كم من إنسان يخفيه الخوف خلف قناع المذنب ؟ وكم من جريمة تبدأ حين يصبح الصمت وسيلةً للبقاء ؟

تنهدت ببطء ، ثم طويت قطعة الحشيش وأودعتها في جيبي ، لتبقى دليلًا لا يمكن إنكاره.

نظرت إليها نظرة أخيرة وقلت بلهجة حاسمة :

سأمنحك هذه الفرصة الأخيرة. لكن إن لم تفي بوعدك الليلة، فلن يكون أمامي إلا تنفيذ القانون، وستدخلين السجن قبل طلوع الفجر.

أومأت برأسها في صمت ، وقد اختلطت في عينيها دموع الخوف ببصيص أمل خافت، كأنها كانت ترى في تلك المهلة القصيرة فرصة أخيرة للنجاة.

استدرت نحو الباب ، وغادرت المنزل بخطوات هادئة.

كان الليل قد بدأ يمد عباءته السوداء على القرية ، بينما أخذت أشعر أن الموعد الذي ينتظرني بعد العشاء لن يكون مجرد لقاء مع امرأة خائفة ، بل مواجهة مع سر كبير ، قد يغيّر مجرى القضية كلها، وربما يغيّر حياة أكثر من شخص.

حين طاردها القدر على قضبان الغروب

كان المساء يهبط ببطء على القرية ، في ذلك اليوم الخريفي الكئيب، حين أخذت الشمس تجمع آخر خيوطها خلف الحقول الممتدة، وتغرق الأكواخ الطينية في ظلال طويلة تشبه الأحزان القديمة. كانت **نقطة الشرطة** الصغيرة تقف عند أطراف القرية، صامتة كأنها تحمل على جدرانها أسرار الناس وخطاياهم، بينما كانت الريح تداعب الأشجار اليابسة في نبرة موحشة ، توحي بأن الليل يحمل في جوفه ما لم يكن في الحسبان.

بعد ساعات طويلة من القلق والترقب ، أمرتُ **نعيم** أن يعود فورًا إلى منزل **الشيخة صباح** ، وأن يظل ملازمًا له ، يراقبه بعين لا تنام ، حتى لا تتمكن من الفرار إن سوّلت لها نفسها ذلك. كان الأمر حاسمًا لا يحتمل التأويل ، فقد كانت كل خيوط القضية تتشابك حولها ، وأدنى غفلة قد تطيح بكل ما بذلناه من جهد.

ولأول مرة منذ وقوع ذلك الحادث المشؤوم، شعرت بأن نافذة صغيرة قد انفتحت في جدار اليأس. رأيت بصيصًا خافتًا من الأمل يلوح في آخر النفق، واستعاد قلبي شيئًا من ثقته التي أنهكتها الأيام. قلت في نفسي :

لعل القدر يمنح الحقيقة فرصة أخيرة لتتكلم، ولعل العدالة، وإن تأخرت، لا تضيع طريقها أبدًا.

جلست أمام النقطة أرقب حركة الطريق. كانت القرية تستعد لاستقبال الليل؛ أصوات المؤذنين تتعانق في الأفق، والدخان الأبيض يتصاعد من البيوت، والأطفال يعودون مسرعين إلى أحضان أمهاتهم. أما أنا، فكنت غارقًا في صمت ثقيل، أراجع في ذهني تفاصيل القضية، وأقاوم ذلك القلق الغامض الذي كان يطرق قلبي دون سبب واضح.

وفجأة،

شقّ الصمت صوت خطوات متسارعة.

رفعت رأسي، فإذا بنعيم يعدو نحوي بكل ما بقي في جسده من قوة. كان وجهه شاحبًا، وثيابه مبعثرة، وأنفاسه تتقطع كمن يهرب من كارثة. وما إن بلغني حتى خرّ باكيًا، وانفجر بصوت يملؤه الذعر والندم:

اقتلني يا سيدي، أنا المسؤول، أنا المذنب !

تجمد الدم في عروقي ، وشعرت بأن الأرض تميد تحت قدمي.

صرخت فيه بعنف لم أعهده في نفسي:

تماسك يا نعيم! ماذا حدث؟ تكلم، ولا تضيع الوقت !

رفع رأسه بصعوبة ، وكانت دموعه تنحدر بلا توقف ، ثم قال بصوت متهدج :

لقد تركت الشيخة صباح دقائق معدودة، ذهبت لأداء صلاة المغرب، وظننت أن الأمر لن يستغرق إلا لحظات. وعندما عدت، وجدت باب منزلها مفتوحًا على مصراعيه، والبيت خاليًا، لقد هربت، هربت يا سيدي. اقتلني، فأنا السبب، وأنا الذي ضيعت كل شيء.

ساد صمت ثقيل.

لم أجد ما أقوله. كان الغضب يشتعل في صدري، لكنني كنت أعلم أن تأنيبه لن يعيد الفارة، ولن يصلح ما أفسدته لحظة غفلة واحدة.

غير أن صوتًا آخر كان يتردد في أعماقي :

أيعقل أن تضيع الحقيقة مرة أخرى؟ أكلما اقتربنا منها ابتعدت؟ لماذا يبدو العدل أحيانًا كسراب كلما هممت بملامسته تلاشى أمام عيني؟

انتفضت من مكاني ، ودخلت نقطة الشرطة بخطوات سريعة.

أصدرت أوامري في لحظات معدودة. وزعت الخفراء والعساكر على جميع الطرق المؤدية إلى القرية وخارجها، وأمرت بتشديد المراقبة عند المعابر والحقول ومحطة القطار. ثم سارعت إلى الاتصال بالنقطة المجاورة، طالبًا تعميم أوصافها والقبض عليها فور العثور عليها.

تحولت القرية الهادئة إلى خلية نحل مضطربة. انطلقت الصفارات، وتعالت النداءات، وهرول الرجال في كل اتجاه، بينما كان الليل يزداد كثافة، كأنه يتواطأ مع الهاربة ليخفي أثرها.

أما أنا،

فعدت إلى مقعدي مثقل القلب ، أشعر بأن البناء الذي شيدته من الأمل قد انهار دفعة واحدة. كان الإحباط ينهش روحي، والأسئلة تتكاثر في رأسي بلا إجابة.

كم يبدو الإنسان ضعيفًا أمام لحظة واحدة ! سنوات من السعي قد تهزمها دقيقة من الغفلة. ترى، هل نحن الذين نصنع مصائرنا، أم أن المصائر تسخر من أوهامنا حين نظن أننا نمسك بخيوطها ؟

مرّت نحو ساعة بدت لي أطول من عمر كامل.

ثم انفتح باب النقطة بعنف ، ودخل أحد الخفراء وهو يلهث ، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الذهول.

قال بصوت متقطع : **لقد انتقم الله منها.**

نهضت واقفًا، وحدقت فيه قائلًا : **ماذا حدث ؟**

ابتلع ريقه، ثم قال : كانت تحاول عبور شريط السكة الحديد مسرعة، كأنها تطارد النجاة أو تهرب من شبح يلاحقها. ولم تنتبه إلى القطار القادم بكل سرعته، فما هي إلا لحظات حتى دهَمها بقوة، وألقاها بعيدًا عن القضبان.

تسمرت في مكاني.

وسألته بصوت خافت امتزج فيه الخوف بالرجاء :

هل ماتت ؟

هز رأسه نافيًا.

لا، لم تمت، لكنها أصيبت إصابات بالغة. وقد نُقلت على الفور إلى مستشفى الوحدة العلاجية ، غير أن حالتها حرجة للغاية ، والأطباء لا يخفون قلقهم.

ساد الصمت من جديد.

خرجت أنظر إلى الأفق ، فإذا بالليل قد ابتلع آخر خيط من ضوء النهار، وكأن السماء أسدلت ستارها على فصل جديد من المأساة.

ولم أشعر يومها بالشماتة ، رغم كل ما فعلته تلك المرأة ، بل شعرت بثقل الإنسان حين يسقط أسيرًا لأخطائه. أدركت أن الهروب لا يسبق القدر ، وأن العدالة قد تتأخر ، لكنها كثيرًا ما تأتي من الطريق الذي لا يتوقعه أحد.

هناك، بين صفير القطار البعيد وأنين الريح في الحقول، أيقنت أن الإنسان يستطيع أن يفر من الناس، ومن القانون، ومن العيون التي تلاحقه، لكنه لن يستطيع أن يفر من نفسه، ولا من اللحظة التي يقف فيها وجهًا لوجه أمام الحقيقة.

وكانت تلك الليلة بداية الفصل الأخير من القضية ، لا نهايتها ؛ فقد بقيت الحقيقة معلقة بين الحياة والموت، تنتظر أن تستعيد الشيخة صباح أنفاسها، أو أن تحمل معها إلى الأبد السر الذي حاولت الهرب به ، فإذا بالقدر يسبقها إلى موعده المحتوم.

الساقية المهجورة
حين ارتدى المجرم وجه الوليّ

كان ذلك في مساءٍ شتوي ثقيل ، حين بدأت الشمس تنسحب ببطء خلف الحقول الممتدة، تاركةً القرية تغرق في ضوءٍ شاحبٍ يشبه الحزن. كانت الرياح تداعب سنابل القمح اليابسة، بينما يلف الصمت المكان إلا من خرير الماء القادم من الساقية المهجورة، التي طالما أحاطها أهل القرية بالخرافات والأساطير.

خرجت من غرفة العمليات في المستشفى الريفي ، وقلبي يضطرب بين الرجاء والخوف. كانت الدقائق التي انتظرت فيها الطبيب أطول من أعوامٍ كاملة، وكل سؤالٍ كان ينهش أعصابي: هل انتهت الحكاية؟ أم أنها لم تبدأ بعد ؟

وما إن خرج الطبيب حتى أسرعت إليه ، وقلت بصوتٍ اختلط فيه القلق بالرجاء : **هل ماتت؟**

توقف الطبيب ، ونظر إليّ طويلًا ، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة لم أستطع أن أفسرها. قال بهدوء :

لا، لم تمت، ولكن هناك مفاجأة طريفة.

انعقد لساني لحظة، ثم تمتمت في دهشة :

أي مفاجأة؟ ماذا تقصد ؟

اقترب مني الطبيب ، ووضع يده على كتفي قائلًا:

اهدأ أولًا.

ثم انحنى نحو أذني وهمس بكلماتٍ قليلة ، لكنها كانت كافية لأن أشعر بعرقٍ باردٍ يتسلل فوق جبيني ، وكأن الأرض قد مادت بي. لم أصدق ما سمعت ، وسرت خلفه صامتًا حتى دخلنا غرفة المصابة.

كانت الفتاة قد استعادت وعيها. بدت شاحبة الوجه، غائرة العينين، ترتجف كغصنٍ بلله المطر. كان الخوف لا يزال يسكن ملامحها، وكأنها عادت من عالمٍ آخر لم تغادره روحها بعد.

نظرت إليّ طويلًا، ثم قالت بصوتٍ خافتٍ متقطع ، يشبه أنين الريح بين الأشجار:

سأخبرك بكل شيء، لعل الحقيقة تريح قلبي قبل أن يلتهمني الندم.

ساد الصمت، ولم يعد يُسمع سوى صوت أنفاسها المتثاقلة.

قالت : منذ نحو شهر، جاءت بي زينب إلى الشيخة صباح، وكانت برفقتها إحدى صديقاتها. استقبلتنا المرأة بابتسامةٍ عريضة، وأخذت تحدق في وجهي طويلًا، ثم راحت تثني على جمالي بطريقة أربكتني. سألتني عن اسمي، وعن أهلي، ثم عرفت أنني مخطوبة لابن عمي.

توقفت قليلًا، وكأن الذكرى كانت تؤلمها.

بعدها أخذت تطلب مني أن أكرر الزيارة، وكانت زينب تشجعني على ذلك، حتى صرت أذهب إليها وحدي. وهناك بدأت تنسج حولي خيوطًا لا أراها.

خفضت رأسها وقالت :

كانت تتحدث إليّ عن الحب ، وعن الأرواح ، وعن الجن الذين يعشقون البشر. شيئًا فشيئًا أقنعتني أنني لا أحب خطيبي ، وأن ما أشعر به نحوه ليس إلا عادة فرضها الأهل. ثم أخذت تغرس في نفسي فكرة غريبة، قالت إن أحد الجن قد هام بي عشقًا منذ رآني أول مرة، وإنه ينتظر اللحظة التي يجمع القدر بيننا.

ارتجف صوتها وهي تتابع :

كنت أضحك في البداية، ثم صدقتها. لا أدري كيف حدث ذلك. كانت كلماتها تتسلل إلى عقلي كما يتسلل السم إلى الجسد. صرت أعيش بين الوهم والحقيقة، حتى اقتنعت أن ذلك الجني يحبني فعلًا، وأصبحت أرجو لقاءه أكثر مما أرجو رؤية خطيبي.

أغمضت عينيها لحظة، ثم تنهدت بحرقة.

وفي ليلةٍ مظلمة، أخبرتني أن الموعد قد حان، وأنها ستجمعني بحبيبي عند الساقية المهجورة. قرأت تعاويذ لم أفهمها، ثم أعطتني ماءً وقالت إنه سيحميني من الأرواح الشريرة. شربته دون تردد، وبعد دقائق

بدأت الدنيا تدور من حولي، وغابت الأصوات، وتلاشت الوجوه، وسقطت في ظلامٍ كثيف.

توقفت عن الكلام ، وانحدرت دمعة ساخنة على خدها.

حين أفقت، كنت ملقاة قرب الساقية، وثيابي ممزقة، وروحي مكسورة. أدركت أنني فقدت أعز ما أملك، أما الجني الذي أوهمتني به فلم يكن إلا إنسانًا حقيرًا.

ساد الصمت مرة أخرى.

ثم أضافت بصوتٍ أقرب إلى الهمس :

لقد عرفت الحقيقة بعد ذلك، الشيخة صباح لم تكن امرأة أصلًا، بل كان ذلك الهارب الخطير محمد مرزوق جمعة، المحكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة من محكمة أسيوط. هرب منذ سنوات ، وتنكر في هذا الزي الغريب، واستغل جهل الناس وسذاجتهم ، فصار وليًا في أعينهم، بينما كان في الحقيقة ذئبًا يختبئ خلف عباءة القداسة.

كنت أستمع إليها وأنا أشعر بثقلٍ يجثم فوق صدري. كم هو مرعب أن يتحول الإيمان البسيط إلى بابٍ يعبر منه المجرمون، وأن تصبح الخرافة أقوى من العقل.

وفي تلك اللحظة، كان محمد مرزوق جمعة، أو الشيخة صباح كما عرفه أهل القرية ، يصارع أنفاسه الأخيرة في غرفةٍ أخرى من المستشفى ، بعد إصابته أثناء القبض عليه.

وقبل أن يغيب عن الدنيا ، اعترف بكل شيء.

اعترف بجرائمه، وبخداعه، وبالوجوه التي سرق منها الطمأنينة ، وبالأحلام التي حطمها.

ثم أسلم الروح ، وترك خلفه جثةً هامدة ، لكن موته لم يدفن الحقيقة، ولم يشفِ الجراح التي زرعها في قلوب ضحاياه.

خرجت من المستشفى وأنا أشعر أن القضية انتهت ، غير أن شيئًا في داخلي كان يهمس بأن الحكاية لم تقل كلمتها الأخيرة.

كان الليل قد أرخى سدوله على القرية ، والطرق الترابية تبتلعها العتمة ، والهواء يحمل رائحة الطين والماء الراكد.

وأثناء سيري نحو نقطة الشرطة ، رأيت نعيمًا يركض نحوي ، يلهث بعنف، وقد علا وجهه الذعر.

ما إن وصل حتى صاح بصوتٍ متقطع : **لقد قُتلت!**

توقفت في مكاني، وسألته بسرعة : **من؟**

ابتلع ريقه، ثم قال :

زينب، وجدنا جثتها عند الساقية المهجورة، مصابة بطلقةٍ نارية في الرأس.

كان الخبر كالصاعقة.

شعرت أن كل الخيوط التي حسبناها قد انتهت ، عادت تتشابك من جديد.

لماذا قُتلت زينب ؟

هل كانت شريكةً في الجريمة، ثم أراد أحدهم إسكاتها ؟ أم كانت ضحية أخرى دفعت ثمن سذاجتها وثقتها العمياء ؟ أم أن يدًا خفية ظلت تتحرك في الظلام حتى بعد موت المجرم ؟

لم يكن بين أيدينا جواب.

كل ما كان هناك هو جثةٌ جديدة ، وساقيةٌ مهجورة ما زالت تخفي أسرارها تحت الماء الساكن.

وفي داخلي دار حوارٌ مرير :

كم يبدو الإنسان هشًّا حين يتخلى عن عقله. إن الخوف يصنع آلهةً من البشر، والخرافة تمنح المجرمين أجنحةً يطيرون بها فوق القانون. ليست المأساة في وجود الشر، بل في أن يجد من يصدقه، ومن يفتح له قلبه دون سؤال.

ظللت أحدق في ظلمة الطريق ، وأنا أشعر أن العدالة، مهما انتصرت، لا تستطيع أن تعيد البراءة إلى قلبٍ كُسر، ولا الكرامة إلى روحٍ انتهكت.

وبعد أيام، انتهى التحقيق، وغادر وكيل النيابة القرية بعدما دوّن آخر سطرٍ في القضية. عاد الهدوء إلى البيوت، واستأنف الفلاحون أعمالهم في الحقول ، وكأن الزمن قد طوى الصفحة.

غير أن ذلك الهدوء كان يخفي تحت سطحه ذاكرةً موجوعة لن يمحوها الزمن.

وفي صباحٍ جديد، رأيت الشيخ علوان يسير في الطريق الترابي كعادته، مرفوع الرأس ، ثابت الخطى ، موفور الكرامة ، يحيي الناس بابتسامةٍ هادئة، وكأن شيئًا لم يقع ، وكأن القرية لم تعرف يومًا تلك الليالي التي امتزج فيها الوهم بالجريمة، والإيمان بالخديعة.

أما الساقية المهجورة ، فقد بقيت هناك ، صامتةً ، لا تنطق بشيء، لكنها كانت تعرف أكثر مما قاله الشهود، وأكثر مما كتبته المحاضر.

وظلت مياهها الراكدة تهمس لكل عابرٍ بحقيقةٍ واحدة :

ليس أخطر المجرمين من يحمل السلاح، بل من يسرق عقول الناس، ويجعلهم يؤمنون بأن الظلام نور، وأن الذئب وليٌّ من أولياء الله.

χ

غير بعيد جلس شرطيان قد تركا سيارتهما ، و أخذا في أول الأمر يراقبان هذا التجمع الدائري ، ثم طالت بهما الجلسة فأخذا يستمعان إلى القصة بإعجاب و تأثر .